الفصل الثالث

قيام المجتمع الإسلامى فى المدينة

إن الإجراءات التى اتخذها الرسول - ﷺ - منذ دخوله المدينة جميعها تشير إلى أن استراتيجية الرسول - ﷺ - فى هذه المرحلة تنحصر فى تأسيس مجتمع إسلامى يكون قاعدة انتصار الدعوة الإسلامية.

أولا: بناء المسجد:

لقد استطاع رسول الله - ﷺ - ببناء المسجد أن يضع حجر الأساس فى بناء المجتمع الإسلامى، وقد أصبح بناء المسجد رمزا لقيام الوحدة الدينية وتعبيرا عن وحدة الجماعة الإسلامية.

ثانيا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وتأكيدا على أن المؤمنين أخوة وإلغاء العصبية القبلية، فقد ورد فى سيرة ابن هشام نقلا عن ابن إسحق أن رسول الله - ﷺ - آخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال: تآخوا فى الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب. قال: هذا أخى وأصبح كل واحد من المهاجرين الذين وفدوا على المدينة متآخيا مع أحد الأنصار، وبهذه المؤاخاة توثقت وحدة المسلمين فى المدينة، وأصبحوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثا مقدما على القرابة، وظل هذا التوارث بالمؤاخاة قائما حتى عز شأن المسلمين بنصرهم فى غزوة بدر فجعل الله عز وجل الإرث بين أولى الأرحام بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥ ﴾.[سورة الأنفال: الآية: ٧٥].

ثالثا: وضع دستور للمدينة:

فقد حرص رسول الله – ﷺ – أن يضع نظاما للحياة العامة فى المدينة، يكون أساسا للمجتمع الجديد. فكتب كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود المدينة وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، وهذا هو النص الكامل لهذا الكتاب الذى ورد فى سيرة ابن إسحق التى نقلها ابن هشام.

"بسم الله الرحمن الرحيم"، هذا كتاب من محمد النبى – ﷺ – بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم "أسيرهم" بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم "الديات" الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين: وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا (المثقل بالدين والكثير العيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه؛ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو من ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم، أو أثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين؛ وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم؛ ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن؛ وإن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم؛ وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس؛ وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسرة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم؛ وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم؛ وإن كان غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا؛ وإن المؤمنين يفىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه؛ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن؛ وإنه من اعتبط (قتل بلا جناية) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم

إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل؛ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه، وأهل بيته، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف؛ وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف؛ وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف؛ وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بن عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف؛ وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته؛ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم؛ وإن موالى ثعلبة كأنفسهم؛ وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ؛ وأنه لا ينحجز على ثأر جرح؛ وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم؛ وإن الله على أبر هذا (أى على الرضا به)، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة؛ وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم؛ وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه؛ وإن النصر للمظلوم؛ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين؛ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها؛ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف ساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها؛ وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى الله صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم؛ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه؛ وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره؛ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم؛ وإن الله جار لمن بر و اتقى، ومحمد رسول الله ﷺ".

وإذا كان هذا الكتاب حرص على أن يجمع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم

أمة واحدة من دون الناس، فإنه يجب أن يكون معلوما أن التعددية الدينية والعرقية من المبادئ الأصيلة فى الإسلام، وقد حرص القرآن الكريم أن تتتابع آياته متضمنة الأسس العامة التى يقوم عليها المجتمع القوى الذى عماده الترابط، وهدفه مصلحة كل أفراد الأمة وهذه الأسس **هى:**

أولا: أن القرآن الكريم ينص على أنه إله المسلمين هو إله الناس جميعا، فيقول سبحانه: ﴿ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ ﴾[سورة العنكبوت: الآية: ٤٦]

ثانيا: أن الناس جميعا ذرية رجل واحد هو آدم، فيقول سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴿١﴾ ﴾.[ثورة النساء الآية: ١]

ثالثا: أن الإسلام ما هو إلا حلقة فى سلسلة طويلة من مسيرة الدعوة فيقول سبحانه: ﴿ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾، [سورة العنكبوت: الآية: ٦٤]، ويتضح انعكاس هذا فى عدم رد المسلمين جميعا على الرسومات المسيئة التى انطلقت من الدانمارك برسومات مثيلة.

رابعا: أن التعددية فى المجتمعات المسلمة هى مشيئة الله عز وجل فيقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[سورة المائدة: الآية: ٤٨]

خامسا: حسن المعاملة، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾.

ولقد كان طبيعيا أن يحرص رسول الله – ﷺ – بعد هجرته إلى المدينة أن يضع هذه الأسس موضع التنفيذ فوضع دستورا ليكون نظاما للحياة العامة فى المدينة، وليكون الأساس المتفق عليه للمجتمع الجديد، وقد تضمن هذا الدستور مبدأ حق المواطنة، وقبول المجتمع الإسلامى للتعددية الدينية. حيث نص كتاب الرسول الكريم: "وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم".

كما حرص هذا الدستور أن يؤكد على أن المجتمع الإسلامى يقبل أيضا التعددية العرقية، وأن جميع المواطنين متساوون فى كافة الحقوق، فينص كتاب رسول الله على أن: "ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وأن ليهود بنى ثعلبة ما ليهود بنى عوف".

وبعد هذا كله حرص دستور المدينة أن يؤكد وحدة كل سكان المدينة على من يهاجم المدينة فينص: "وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة". ثم ينتقل إلى الدستور بعد أن أكد حق المواطنة لكل سكان المدينة إلى مبدأ فى غاية الأهمية، وهو حسن المعاملة حيث تنص صحيفة الدستور: "وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم".

إن إصدار هذا الدستور ليس معناه أن الرسول - ﷺ - أقام فى يثرب دولة إسلامية، لأن ذلك يجعل من الإسلام دين محلى لهذه الدولة، ولتساوى محمد صلى الله عليه وسلم برؤساء دول العالم وهو سيد الخلق، كما أنه يجب ألا ننسى أن العرب لم يعرفوا فى تاريخهم نظام الدولة إلا بعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة.

وهكذا كان الإسلام دين وأمة، وليس بالضرورة دين ودولة، بمعنى أنه إذا كان المسلمون أقلية فى دولة كان الإسلام دين وأمة، أما إذا كان المسلمون هم الغالبية، كان الإسلام دين ودولة وعلى أن تكون فى الحالتين المرجعية للشريعة الإسلامية، وهذا ما يفهم من النص: «وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد - ﷺ - وهو التطبيق العملى لما نص عليه القرآن الكريم فى سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾

غزوة بدر الكبرى

وكانت فى اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وسببها أن النبى (ﷺ) ندب أصحابه للتعرض لقافلة قريش العائدة من الشام إلى مكة، ولم يكن يريد قتالا، ولكن القافلة التى كان يقودها أبو سفيان قد نجت بعد أن كان أرسل إلى قريش يستنفذها لحماية القافلة، فخرجت قريش فى نحو من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (لابس للدرع) ومائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة، وسبعمائة بعير، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين.

أما المسلمون، فكانت عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا، أكثرهم من الأنصار، وكان معهم سبعون جملا، وفرسان أو ثلاثة أفراس فحسب، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فئة بعد أخرى، وقبل أن يخوض المعركة، أراد أن يستشر

أصحابه، وخاصة الأنصار، فى خوض المعركة، فأشار عليه المهاجرون بخوضها وتكلموا خيرا، ثم علم الأنصار أنه يريدهم، فقال له سعد بن معاذ وهو سيد الأنصار جميعا: يا رسول الله قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، ما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، وإنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، وقال غيره مثل ذلك، فسر الرسول (ﷺ) لذلك، وقال: سيروا على بركة الله، وأبشروا، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين، إما العير، وإما النفير، ثم سار الرسول (ﷺ) حتى وصل أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله! هذا منزل أنزلكه الله تعالى: لا تتقدمه، ولا تتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال الرسول (ﷺ) بل هو الرأى والحرب والمكيدة، فأشار عليه الحباب بن المنذر أن يسير إلى مكان آخر هو أصلح وأمكن للمسلمين من قطع ماء بدر عن المشركين، فنهض الرسول (ﷺ) وأصحابه حتى وصلوا إلى المكان الذى أشار به الحباب، فأقاموا فيه، ثم أشار سعد بن معاذ أن يبنى للرسول (ﷺ) عريشا وراء صفوف المسلمين، فإن أعزهم الله كان ما أحب، وإلا جلس على ركائبه ولحق بمن فى المدينة، وقال له سعد: فقد تخلف عنا أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا لما تخلفوا عنك، فدعا له النبى (ﷺ)، وأمر أن يبنى له العريش، ولما التقى الجمعان، أخذ الرسول يسوى صفوف المسلمين، ويحرضهم على القتال، ويرغبهم فى الشهادة، وقال: "والذى نفسى بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة" ورجع إلى عريشه ومعه أبو بكر، ويحرسه سعد بن معاذ متوشحا بسيفه، وأخذ الرسول (ﷺ) فى الدعاء، ومن دعائه: "اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة "المؤمنون المحاربون" لا تعبد فى الأرض" وأطال فى سجوده، حتى قال له أبوبكر: حسبك، فإن الله سينجز لك وعدك، ثم حمى القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قتل من المشركين نحو من السبعين، فيهم أشركهم أبو جهل وبعض زعمائهم، وأسر منهم نحو السبعين، ثم أمر بدفن القتلى جميعا، وعاد إلى المدينة، ثم استشار أصحابه فى أمر الأسرى – فأشار عليه عمر بقتلهم، وأشار عليه أبوبكر بفدائهم، فقبل الرسول (ﷺ) مشورة أبى بكر، وافتدى المشركون أسراهم بالمال.

وقد نزل فى معركة بدر آيات من كتاب الله الكريم، قال الله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآيات: ١٢٣-١٢٧]

كما نزل العتاب لرسول الله (ﷺ) على قبوله فداء الأسرى، فقال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[سورة الأنفال: الآيتين: ٦٧-٦٩].

وقد ذكر الكتبى فى عيون التواريخ أن يهود بنى قينقاع قد طردهم رسول الله (ﷺ) بعد عزوة بدر من المدينة لما تعمدوا العدوان على امرأة من الأنصار وتطاولوا على المسلمين، لكن الدكتور بركات أحمد يذكر فى كتابه محمد واليهود أن طرد بنى قينقاع من المدينة كان بعد ذلك بسنوات قليلة.

غزوة أحد:

وكانت يوم السبت لخمس عشرة خلت من شوال فى العالم الثالث للهجرة، وسببها أن قريشا أرادت أن تثأر ليوم بدر، فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو الرسول (ﷺ) فى المدينة، فخرجت فى ثلاثة آلاف مقاتل، ما عدا الأحابيش، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، ومعهم سبع عشرة امرأة، فيهن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان، وقد قتل أبوها يوم بدر، ثم ساروا حتى وصلوا بطن الوادى من قبل أحد (وهو جبل مرتفع يقع شمال المدينة على بعد ميلين منها) مقابل المدينة، وكان من رأى الرسول وعدد من الصحابة أن لا يخرج المسلمون إليهم، بل يظلون فى المدينة، فإن هاجمهم المشركون صدوهم عنها، ولكن بعض شباب المسلمين وبعض المهاجرين والأنصار وخاصة من لم يحضر منهم معركة بدر ولم يحصل له شرف القتال فيها، تحمسوا للخروج إليهم ومنازلتهم فى أماكنهم، فنزل الرسول (ﷺ) على رأيهم، ودخل بيته ولبس لأمته (درعه)، وألقى الترس فى ظهره، وأخذ قناته

بيده، ثم خرج إلى المسلمين، وهو متقلد سيفه، فندم الذين أشاروا عليه بالخروج إذ كانوا سببا فى حمله على خلاف رأيه، وقالوا للرسول: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت أو اقعد إن شئت – فأجابهم الرسول (ﷺ) بقوله: "ما كان ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه"، ثم خرج والمسلمون معه فى نحو ألف بينهم مائة دارع وفرسان.

ولما تجمع المسلمون للخروج، رأى الرسول جماعة من اليهود يريدون أن يخرجوا مع عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين للخروج مع المسلمين، فقال الرسول: "أو قد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال:" مروهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين"، وفى منتصف الطريق انخذل عن المسلمين عبد الله بن أبى بن سلول ومعه ثلاثمائة من المنافقين، فبقى عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل فرقة منه قائدا، واختار خمسين من الرماة، على رأسهم عبد الله بن جبير الأنصارى ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وقال لهم: "احموا ظهورنا، لا يأتونا من خلفنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إنى "أشهدك عليهم" وقال لهم فى رواية أخرى: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى، فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم".

ثم ابتدأ القتال، ونصر الله المسلمين على أعدائهم، فقتلوا منهم عددا، ثم ولوا الأدبار، فانغمس المسلمون فى أخذ الغنائم التى وجدوها فى معسكر المشركين، ورأى ذلك من وراءهم من الرماة فقالوا: ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله؟ ثم فكروا فى ترك أمكنتهم لينالهم نصيب من الغنائم، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير بوصية الرسول، فأجابوا بأن الحرب قد انتهت، ولا حاجة للبقاء حيث هم، فأبى عبد الله ومعه عشرة آخرون أن يغادروا أمكنتهم، ورأى خالد بن الوليد– وكان قائد ميمنة المشركين– خلو ظهر المسلمين من الرماة، فكر عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وأشيع أن الرسول قد قتل، ففر بعضهم عائدا إلى المدينة، واستطاعوا أن يصلوا إلى الرسول، فأصابته حجارتهم حتى وقع وأغمى عليه، فشج وجهه وخدشت ركبتاه،

وجرحت شفته السفلى، وكسرت الخوذة على رأسه، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر فى وجهه، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله، فثبت (ﷺ) وثبت معه نفر من المؤمنين، منهم: أبو دجانة، تترس على الرسول ليحميه من نبال المشركين، فكان النبل يقع على ظهره، ومنهم سعد بن أبى وقاص، رمى يومئذ نحو ألف سهم، ومنهم: نسيبة أم عمارة الأنصارية، تركت سقاء الجرحى، وأخذت تقاتل بالسيف، وترمى بالنبل، دفاعا عن رسول الله حتى أصابها فى عنقها، فجرحت جرحا عميقا، وكان معها زوجها وابناها، فقال لهم الرسول (ﷺ): بارك الله عليكم أهل بيت، فقالت له نسيبة: ادع الله أن نرافقك فى الجنة، فقال: "اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة" فقالت رضى الله عنها بعد ذلك: ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا، وقد قال (ﷺ) فى حقها: "ما التفت يمينا وشمالا يوم أحد، إلا ورأيتها تقاتل دونى "وقد جرحت يومئذ اثنى عشر جرحا، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف.

وقد حاول فى ساعة الشدة أن يصل أبى بن خلف إلى الرسول (ﷺ) ليقتله، وأقسم أن لا يرجع عن ذلك، فأخذ عليه السلام حربة ممن كانوا معه، فسددها فى نحره، فكانت سبب هلاكه، وهو الوحيد الذى قتله (ﷺ) فى جميع معاركه الحربية.

ثم استطاع (ﷺ) الوقوف والنهوض على أكتاف طلحة بن عبيد الله، فنظر إلى المشركين، فرأى جماعة منهم على ظهر الجبل، فأرسل من ينزلهم قائلا: "لا ينبغى لهم أن يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك" وانتهت المعركة. وقال أبو سفيان مظهرا تشفيه والمشركين من هزيمتهم يوم بدر: يوم بيوم بدر.

وممن قتل فى هذه المعركة حمزة عم الرسول (ﷺ) ومثلت به هند زوج أبى سفيان، واحتزت قلبه ومضغته، فرأت له مرارة لفظته، وقد حزن الرسول (ﷺ) لمشهده حزنا عظيما فقال: لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم، ولكن الله نهى عن المثلة بعد ذلك.

وقد بلغ عدد قتلى المسلمين فى هذه المعركة نحوا من السبعين، وقتلى المشركين ثلاثة وعشرين.

وقد أنزل الله تعالى فى هذه المعركة عدة آيات يضمد بها جراح المؤمنين، وينبههم إلى سبب الهزيمة التى حلت بهم، فيقول فى سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ

ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾
وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة آل عمران: الآيات: ١٣٩-١٤٢].

ثم يقول بعد آيات: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا
عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ
أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [سورة آل
عمران: الآيات: ١٥٢-١٥٣].

غزوة بنى النضير:

وهم قوم من اليهود يجاورون المدينة، وكانوا حلفاء للخزرج وبينهم وبين المسلمين عهد سلم وتعاون كما قدمنا، ولكن طبيعة الشر والغدر المتأصلة فيهم أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم، فبينما كان الرسول (ﷺ) وبعض أصحابه فى بنى النضير وقد استند إلى جدار من بيوتهم، إذ تآمروا على قتله بإلقاء صخرة من ظهر البيت، فعلم (ﷺ) بذلك فنهض سريعا كأنه يهم بحاجة، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه ثم أرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تساكنونى بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، ثم أمهلهم (ﷺ) عشرة أيام للخروج.

وتجهز بنو النضير للخروج فى هذا الإنذار، ولكن عبد الله بن أبى رأس المنافقين أرسل إليهم ينهاهم عن الخروج، ويعدهم بإرسال ألفين من جماعته يدافعون عنهم، فعدلوا عن النزوح، وتحصنوا فى حصونهم، وأرسلوا إلى النبى (ﷺ): إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فخرج إليهم (ﷺ) فى أصحابه يحمل لواءه على بن أبى طالب، فلما رآهم اليهود أخذوا يرمونهم بالنبل والحجارة، ولم يصل إليهم المدد الذى وعدهم به رأس المنافقين فحاصرهم عليه الصلاة والسلام، فصبروا فاضطر إلى قطع نخيلهم فقالوا عندئذ: نخرج من بلادك، واشترط عليهم (ﷺ) أن لا يخرجوا معهم السلاح، ولهم أن يخرجوا معهم من

أموالهم ما حملته الإبل، ودماؤهم مصونة لا يسفك منها قطرة، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم كيلا يستفيد منها المسلمون، وساروا، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة، ومنهم من نزل فى ناحية "جرش" بجنوب الشام، ولم يسلم منهم إلا اثنان.

وقد نزلت فى هذه الغزوة سورة الحشر ومنها قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الحشر: الآيات: ٢ - ٤].

غزوة الأحزاب:

وتسمى عزوة (الخندق)، وقد وقعت فى شوال من السنة الخامسة للهجرة، وسببها أنه لما تم إجلاء بنى النضير، قدم عدد من رؤسائهم إلى مكة يدعون قريشا ويحرضونها على قتال الرسول (ﷺ)، فأجابت قريش لذلك، ثم ذهب رؤساء اليهود إلى غطفان، فاستجابت لهم بنو فزارة وبنو مرة، وأشجع واتجهوا نحو المدينة، فلما سمع النبى (ﷺ) بخروجهم، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة، فأمر الرسول (ﷺ) بحفره وعمل فيه بنفسه، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق، إذ لا عهد للعرب بمثله، وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حيى بن أخطب أحد اليهود الذى هيجوا قريشا والأحزاب ضد المسلمين، قد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بنى قريظة يطلب إليه نقض عهد السلم بينه وبين المسلمين، وفكر النبى فى مصالحة بنى قريظة على ثلث ثمار المدينة، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازا بدينهم من أن يعطوا الدية لهؤلاء الخائنين للعهود والمواثيق، وبدأ القتال باقتحام بعض فرسان المشركين للخندق من إحدى نواحيه الضيقة، فناوشهم المسلمون وقاتلوهم ، ثم جاء نعيم ابن مسعود بن عامر إلى الرسول، فأخبره أنه قد أسلم، وأن قومه لا يعلمون بإسلامه، وأنه صديق لبنى قريظة يأتمنونه ويثقون به، وقال للرسول: مرنى بما شئت، فقال الرسول: "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة" فاستعمل نعيم دهاءه حتى فرق بين قريش وحلفائها، وبين بنى قريظة، وأوقع فى نفوس كل من الفريقين

الشك فى الآخر، وأرسل الله على الأحزاب ريحا شديدة فى ليلة شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفئ قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلات نفوس الأحزاب رعبًا ورحلوا فى تلك الليلة، فلما أصبح الصباح نظر المسلمون فلم يروا أحدا.

وفى هذه الغزوة أنزل الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: الآيات: ٩-١١]، ثم يصف موقف المنافقين وتخذيلهم وانسحابهم من المعركة ثم يقول فى وصف المؤمنين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[سورة الأحزاب: الآيات: ٢٢ - ٢٥].

غزوة بنى قريظة:

وقد وقعت فى السنة الخامسة للهجرة عقب عزوة الأحزاب، وذلك أن رسول الله (ﷺ) بعد أن رأى ما انطوت عليه نفوس يهود بنى قريظة من اللؤم والغدر والتحزب مع قريش وحلفائها، وبعد أن أعلنت له إبان اشتداد معركة الأحزاب أنها نقضت عهدها معه، وكانت وهى تساكن الرسول (ﷺ) فى المدينة تهم بشر عظيم قد يقضى على المسلمين جميعا لولا انتهاء معركة الأحزاب بمثل ما انتهت إليه، رأى رسول الله (ﷺ) أن يؤدب هؤلاء الخائنين الغادرين، ويطهر منهم المدينة مقر جهاده ودعوته حتى لا تواتيهم الظروف مرة أخرى، فينقضوا على جيرانهم المسلمين ويبيدوهم كما هى طبيعة الغدر اليهودى اللئيم.

وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله (ﷺ) لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال: وضعت السلاح، فوالله ما وضعته، قال: فأين؟ قال: ها هنا، وأومأ إلى بنى قريظة، قال: فخرج إليهم رسول الله (ﷺ).

أمر الرسول (ﷺ) من ينادى فى الناس بأن لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، ثم خرج فيهم وقد حمل رايته على رضى الله عنه، وقد اجتمع من المسلمين ثلاثة آلاف، ومن الخيل ست وثلاثون، فلما دنا على من حصن بنى قريظة سمع منهم مقالة قبيحة فى حقه (ﷺ) وحق أزواجه، فأخبر النبى (ﷺ) بذلك، وطلب إليه أن لا يدنو من أولئك الأخباث، فأجابه عليه السلام بأنهم إذا رأوه لم يقولوا من ذلك شيئا لما يعلم من أخلاقهم فى النفاق والملق، فلما رأوه تلطفوا به كما تنبأ النبى (ﷺ)، ثم أخذ المسلمون فى حصارهم خمسا وعشرين ليلة، فلما ضاق بهم الأمر، نزلوا على حكم الرسول (ﷺ)، فحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، فحكم سعد بأن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم وأن تقسم أموالهم، فنفذ الرسول حكمه، وبذلك قضى على مؤامرات اليهود ودسائسهم وتآمرهم على رسول الله (ﷺ) ودعوته قضاء مبرما فى المدينة وما حولها.

وفى هذه الغزوة نزلت آيات القرآن الكريم تبين غدر اليهود ونقضهم للعهود، وتخذيلهم لصفوف المسلمين فى غزوة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: الآيات: ١٣ - ١٦]

إلى أن يقول ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأحزاب: الآيتان: ٢٦- ٢٧].

معاهدة الحديبية

وقعت فى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة، وكان من أمرها أن رسول الله (ﷺ) رأى فى منامه أنه دخل البيت هو وصحابته آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئا، فأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين، لا يريد حربا لقريش ولا قتالا، فخرج معه المهاجرون والأنصار يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام بعد أن حرموا من ذلك ست سنوات، وخرج معهم من شاء من الأعراب، وساق أمامه (ﷺ) وهو ما يساق

إلى البيت الحرام من الإبل والنعم تعظيما للبيت وتكريما، وأحرم بالعمرة من مكان يسمى بذى الخليفة، ليعلم الناس وقريش خاصة أنه لا يريد قتالا، وكان عدد من خرج معه نحوا من ألف وخمسمائة، ولم يخرجوا معهم بسلاح إلا سلاح المسافر فى تلك العهود: السيوف فى أغمادها، وسار حتى إذا وصل إلى "عسفان" جاء من يقول له: هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبدا، فقال النبى (ص): يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب! ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى، كان ذلك الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة".

فلما وصل إلى الحديبية وهى مكان قريب من مكة بينها وبين طريق جدة الآن – جاءه بعض رجال من خزاعة يسألونه عن سبب قدومه، فأخبرهم أنه لم يأت إلا ليزور البيت ويعتمر، فرجعوا وقالوا لهم: إنكم تعجلون على محمد، لما يأت لقتال، إنما جاء زائرا، لهذا البيت فقالوا: لا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا يتحدث العرب عنا بذلك.

ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفى ليتحدث إلى الرسول بهذا الشأن، وبعد حديث وأخذ ورد بين عروة وبعض الصحابة، عاد إلى قريش وحدثهم عما أرى من حب الصحابة لرسول الله (ﷺ) وهيبتهم له، ورغبتهم فى الصلح معه، فأبوا ذلك، ثم بعث الرسول (ﷺ) عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول وصحابته، وأبطأ عثمان، فأشيع بين المسلمين أنه قد قتل، فقال الرسول عندئذ: لا نبرح حتى نناجز القوم (نقاتلهم) ودعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد. والشهادة فى سبيل الله، فبايعوه تحت شجرة هناك من أشجر الطلح على عدم الفرار، وأنه إما الصلح، ,إما الشهادة، ولما علمت قريش بأمر البيعة، خافوا ورأوا الصلح معه على أن يرجع فى هذا العام ويعود من قابل فيقيم ثلاثا معه سلاح الراكب: الرماح والسيوف فى أغمادها، وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح، وأخيرا تم الصلح، على ما رغبت قريش، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين، وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه، وأن من أتى محمدا من مكة ردوه إليهم، فعز ذلك على المسلمين، وأخذ بعضهم يجادل النبى (ﷺ) فيما جاء من شروطها، ومن أشدهم فى ذلك عمر حتى قال رسول الله: "إنى عبد الله، ولن يضيعنى"

ثم أمر الرسول أصحابه بالتحلل من العمرة فلم يفعلوا ذلك فى موجة من الألم، لما حيل بينهم وبين دخول مكة ولما شق عليهم من شروط الصلح فبادر عليه السلام بنفسه، فتحلل من العمرة، فتتبعه المسلمون جميعا، وقد ظهرت فيما بعد فوائد هذه الشروط التى صعبت على المسلمين ورضى بها الرسول، لبعد نظره، ورجحان عقله، وإمداد الوحى له بالسداد فى الرأى والعمل.

هذا وقد سمى الله هذه المعاهدة فتحا مبينا، حيث قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾[سورة الفتح: الآية: ١ – ٣]، ثم تحدث عن مبايعة الرسول (ﷺ) فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[سورة الفتح: الآية: ١٠]، ورضى عن أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[سورة الفتح: الآية: ١٨]، وتحدث عن رؤيا الرسول (ﷺ) التى كانت سببا فى غزوة الحديبية، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[سورة الفتح: الآية: ٢٧]، ولعل هذه إشارة إلى فتح مكة الذى كان ثمرة من ثمرات صلح الحديبية.

* * *